

عبد الله بن الحارث الزبيدي قائد من أهل الصفة

٥

خرج أهل المدينة لاستقبال محمد ﷺ، زرافات ووحدانا، رجالا ونساءً، بعد الذى ترامى إليهم من أخبار هجرته، ومن مؤامرة قريش عليه، ومن احتماله أشد القبط فى هذه الرحلة المضنية، بين كئيبان تهامة، وتلالها وجبالها، التى ترد أشعة الشمس لظىً وسعيراً.

خرجوا من بيوتهم يثيرونهم تطلعهم إلى رؤية هذا الوافد العظيم.. لما انتشر من خير دعوته فى أنحاء شبه الجزيرة، ومما تقضى عليه هذه الدعوة من عقائد ورثها أهلها عن آبائهم، وكانت عندهم موضع التقديس.. يضاف إلى ذلك سبب آخر، هو أن النبى ﷺ قد هاجر من مكة إلى المدينة ليقيم بها، وكل طائفة بالمدينة ترتب لهذا المقام الشريف، كلُّ حسب حاجته ومصالحته.. لكن بين هؤلاء وهؤلاء بشر، انغمرت قلوبهم بالإيمان، فلا حاجة لهم ولا مصلحة إلا الترحيب بالوافد العظيم.. إنهم الأنصار الذين قال فيهم النبى ﷺ: «لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شعباً.. لسلكت وادى الأنصار وشعبهم، ولولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار». وذلك لاستقبالهم العظيم..

ومن هؤلاء الذين أحبوا محمداً وأحبهم عبد الله بنى الحارث الزبيدي.. ذلك الأنصارى الذى أعد نفسه لخوض تجربة الإيمان، والذى تُجمع كل المراجع التاريخية على أنه كان من الصحابة المقربين إلى النبى ﷺ، وأنه عليه أفضل الصلاة والسلام هو الذى سمَّاه عبد الله بعد أن كان اسمه العاصى، حيث يذكر الطبرى قصة خلاصتها أن النبى ﷺ سأله: ما اسمك؟

فقال: «العاصي»: فقال النبي ﷺ: «العاصي»؟ إثم عند الله. ومن يومها تبدل إسمه من العاصي إلى عبد الله، وكان يُكنى بأبي تراب، تشبها بالإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكان من الخريصين على العبادة، الأمر الذي شد انتباه غيره من الصحابة فقد كان يقوم الليل ويصوم النهار. والجدير بالذكر أن عبد الله بن الحارث عدّه الرواه والمحدثون والمؤرخون من أصحاب الصفة. وهم جماعة من فقراء المؤمنين الأوائل، كانوا ينقطعون في مسجد الرسول ﷺ بالمدينة للعبادة وسُموا بأهل الصفة. ويرجع ذلك إلى أن النبي ﷺ كان يطلب منهم أن يصطفوا صفاً خاصاً بهم عند الصلاة، وكان موقعهم بالنسبة للحرم النبوي في الجهة المقابلة لحائط القبلة، فكانوا يفعلون ما يُطلب منهم حتى عرفوا بهذا الاسم أو تلك الصفة.

وأما الحكمة التي من أجلها طلب النبي من أهل الصفة، ومنهم عبد الله بن الحارث، أن يصطفوا صفاً خاصاً بهم، هي أن يراهم جمهور المصلين فيحسنوا عليهم بدون أن يُريقوا ماء وجههم بالطلب أو بالسؤال. . كان النبي ﷺ يطلب كل مساء من أغنياء الصحابة أن يأخذ كل واحد منهم جماعة من أهل الصفة يستضيفونهم في العشاء، وكان النبي يبدأ بنفسه فيجمع عدداً من هؤلاء المؤمنين ليكونوا في شرف ضيافته.

وأما عن مجيء هذا الصحابي الجليل إلى مصر ودفنه بالمحلة الكبرى فيذكر ابن الزيات في كتابه أن عبد الله بن الحارث الزبيدي كان فيمن دخل مصر من الصحابة ودفن فيها، فقال: ممن دخلها عبد الله بن الحارث من أصحاب الرسول ﷺ، وآخر من مات بها بعد أن عمّر عمراً طويلاً «ولكن ابن الزيات لم يذكر أسباب حضور عبد الله بن الحارث الزبيدي إلى مصر واستقراره بها.

وقال الإمام أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه: «حججتُ طفلاً مع أبي في سنة من السنين، فرأيتُ الناس يزدهمون في الحرم، فسألت عن ذلك، فقيل لى: أنه عبد الله بن الحارث الزبيدي من أصحاب محمد ﷺ. فأخذنى أبى من يدي ثم أجلسنى أمامه وقال: يا بنى، اسأله أن يمر بيده على رأسك. . فسألته فمرَّ بها. . ولم يذكر أبو حنيفة رضى الله عنه شيئاً عن مقدمه إلى مصر واستقراره بها حتى الوفاة.

وعن نفسه وعن صحبته المباركة للنبي ﷺ يذكر عبد الله بن الحارث قائلاً: لقد رأيتني سبع سبعة أوسادس ستة مع رسول الله ﷺ في دار رجل، فمر بلال فناداه بالصلاة، فخرج، فمررنا برجل وبرمته على النار، فقال رسول ﷺ: أطابت برمته؟ قال الرجل: نعم، بأبي أنت وأمي. فتناول منها تصنعاً، فلم يزل يمسكها حتى أحرم بالصلاة وأنا انظر إليه «وهذا دليل على أن هذا الرجل الصالح كان من قلة المرافقين للنبي».

وعن فتح مكة تكلم المقرئ الميرزي فذكر أسماء من شهد فتحها من الصحابة الأجلاء نقلاً عن ابن الحكم، فقال: «قدم عبد الله بن الحارث بن الزبيدي إلى مصر في جيش عمرو بن العاص.. وكان معدوداً من فرسان الصحابة، وتولى قيادة فيلق من فيالق الجيش، وأبلى بلاءً حسناً في فتح مدن مصر وقراها. وهنا تتضح الإشارة إلى وصوله إلى مصر وسبب ذلك.

وتواصل روايات المؤرخين تأريخها لشخصية هذا الصحابي الجليل عبد الله بن الحارث، فتذكر أنه عندما استتب الأمر للمسلمين في مصر بدأ عمرو بن العاص يخطط الخطط في الفسطاط القديمة للقبائل العربية التي وفدت معه للفتح، كما أنه استبقى بعض الصحابة الذين يأنس لهم ويطمئن إليهم وكان من بينهم الصحابي الجليل عبد الله بن الحارث. الذي أقطعه إحدى قرى الوادي بالمحلة الكبرى حالياً وهي صفيط تراب، فسكنها هذا الصحابي، وبنى بها داراً ومسجداً، وقد كانت داره التي سُميت بدار الأنصاري، ويبدو أن هذه القرية سُميت بكنيته أبي تراب.

وكانت داره ملتقى لكل وافد أو عابر سبيل، ينزلها حتى على سبيل التبرك، حيث يحظى بلقاء واحد من أصحاب محمد ﷺ، فيجد من صاحب الدار عبد الله بن الحارث كل كرم ومودة، برغم تواضع إمكانياته التي كانت تصل أحياناً إلى حد الكفاف. لكن برغم ذلك كان يجود بما عنده متذكراً ما تعلمه من النبي ﷺ الذي كان يجود بكل ما عنده لأي عابر سبيل، أو صاحب حاجة، فيشملة بعطفه ورقته ومودته، حتى لا يجعله يشعر بما كان يريد أو يحتاج.. وهي سلوكيات لا تكون إلا ممن كان نبياً رسولا. وكثيراً ما كان هذا الصحابي الجليل يحدث من يقصده عن هدى النبي وتعاليمه وأحاديثه، بأسلوب من كان قريباً منه، عليه الصلاة والسلام.

وأما مسجد عبد الله بن الحارث فقد تحول في حياته إلى دار للعلم، إلى جانب كونه داراً للعبادة، فقصده طلاب العلم يستزيدون من علم هذا الصحابي الذي استقاه من النبي ﷺ وصحابته، وظل على هذا الحال حتى كانت وفاته في عام ٨٨ بعد أن عمّر طويلاً، فقليل إنه تجاوز المائة عام، قضى معظمها في العبادة والجهاد في سبيل الله.
